# الفصل السابع

## بشائر الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [سورة الفتح - الآيات ١ : ٣].

### ١

أرى رسول الله ﷺ فى نومه، أنه دخل مكة هو وأصحابه، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه ﷺ دخل البيت واستلم مفتاحه، ووقف بعرفات، وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما رأى، فاستبشروا خيرا، وقالوا فيما بينهم:

- إنما هى مكة تفتح لنا.

اليوم: الاثنين، الأول من الشهر.

الشهر: ذى القعدة.

السنة: السادسة من الهجرة.

أحرم رسول الله ﷺ من مسجده، وكان قد دعا المسلمين للخروج للعمرة، واستجاب له جمع كبير ممن دعاهم، وخرجوا من المدينة، وقد احرم أكثرهم متجهين إلى بيت الله الحرام بمكة، وقد صحبوا معهم الهدى من إبل وخراف، لا يحملون من أدوات الحرب إلا السيوف فى أغمادها.

ولما بلغ المسلمون الجحفة، خطب رسول الله ﷺ فيهم، وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، قال مما قال:

- إنى كائن لكم فرطا، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه.

وسمعت قريش بخروج النبى ﷺ وصحبه إليهم، وهاجت شياطينهم، فأهاجت فيهم الشر، فتنادوا، وتعاهدوا، وأقسموا على ألا يدخل عليهم محمد ﷺ قريتهم فى عامهم هذا، وتجهزوا لحربه، وخرجت فرسانهم ومشاتهم، ومعهم نفر غير قليل من حلفائهم لملاقاة المعتمرين خارج مكة.

وعلم رسول الله ﷺ بما انتوت قريش. فدعا أصحابه، وقال لهم:

- يا معشر المسلمين، أشيروا على، أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟.

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه:

- الله ورسوله أعلم، يا رسول الله، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ونرى أن نمضى لوجهتنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه.

وأيده المسلمون فيما رأى، فسأل رسول الله ﷺ عن أعلم الرجال بمسالك الجبال ليتقدمهم، فقال بريدة بن الحصيب:

- أنا يا رسول الله، أعلم بها.

فقال ﷺ، وقد بدأت الشمس تميل غاربة:

- فسيروا على اسم الله.

وسار المسلمون، متحاشين المكان الذى عسكر به فرسان المشركين، بقيادة خالد بن الوليد، وأنار الله لهم ظلمة الليل، حتى لا يشق عليهم السير بين مخانق الجبال، وبعد أن صلى بهم نبى الله ﷺ الصبح، بشرهم بأن الله تعالى قد غفر لهم جميعا ما تقدم من ذنوبهم.

ثم عسكروا بالحديبية.

وجاء من تهامة رجال من خزاعة، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، ومنهم من أسلم ومنهم من وادع، وأبلغوا رسول الله ﷺ أنهم قد قدموا من مكة، وأن قريشا قد جمعت أمرها، وخرجت فى جند كثير، عازمة على ألا تدع رسول الله وصحبه يدخلون مكة، إلا بعد أن يبيدوا كبيرهم وصغيرهم، فأخبرهم رسول الله ﷺ أنه لم يأت لحرب قريش، إنما جاء للطواف بالبيت، ولكن إذا صدوه عنه قاتلهم.

وذهب وفد خزاعة إلى نادى قريش، وقالوا لهم:

- إنكم لتعجلون على محمد رسول الله. إنه لم يأت لقتال، إنما جاء معتمرا.

ولم يسلم سادة قريش بصدق ما قيل، لمعرفتهم لما بين خزاعة وبين رسول الله ﷺ من ود، وبعثوا بعروة بن مسعود الثقفى ليتحرى، فجاء رسول الله وهو بين أصحابه، فقال:

- يا محمد، تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، على أعداد كمياه الحديبية، معهم أقوى المقاتلين، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، قد لبسوا جلود النمور، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت ومن قاتلهم بين أحد أمرين، أن تجتاح قومك، ولم يسمع برجل اجتاح قومه وأهله قبلك، أو بين أن يخذلك من ترى معك، وإنى والله لا أرى معك وجوها، وإنى لا أرى إلا أخلاطا من الناس، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم، وخليقا أن يفروا ويدعوك فتؤخذ أسيرا..

وأثارت كلمات عروة غضب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فسبه سبة عظيمة، ثم قال له:

- أنحن نخذله أو نفر عنه!!.

بهت عروة من قسوة الرد، وتقافزت شياطين الغضب متحفزة للنزال، لكنه سكت ولم يعقب، بعد أن عرف أن المتكلم كان أبا بكر، فلقد سبقت للصديق مكرمة عليه تمنعه من أن يبدأ فى حقه.

انصرف عروة من عند رسـول الله ﷺ، بعد أن أعاد عليه ما قاله من قبل. فلما لقى سـادة قريش، وقف فيهم، وقال:

– يـا قوم، إني وفدت إلى الملوك: كسـرى وقيصر والنجاشـى، وإني والله مـا رأيت ملكا قط أطوع فيمـا بـين ظهرانيه من محمـد فى أصحابه، والله ما رأيت ملكا قط يعظمـه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، وهو ليس بملك، فهو إذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر بشـىء منه، وإذا تكلم خفضوا صوتهم عنده، وما يحدقون النظر إليه تعظيما له، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن، فإن هو أذن له..تكلم، وإن لم يأذن له سكت، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وضرب الشيطان على أفئدتهم، فلم يقبلوا نصيحة عروة، فانصرف غاضبا إلى دياره بالطائف، بينما أجمع الرافضون على إرسـال من يتحسـس أخبار رسول الله ﷺ، فبعثوا بالحليس بن علقمة الكنانى، فلما رآه رسـول الله ﷺ مقبلا من بعيد عرف صفته، وعرف أصحابه بأنه من قوم يعظمون البدن، ثم أمـر بالهـدى أن تسـاق فى مواجهته، فلما رآها الحليس وقد أكلت أوبارها وعلت أصواتها بالحنين تختلط معها أصوات المسلمين بالتكبير والتلبية، صاح قائلا:

– والله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، هلكت قريش ورب الكعبة إن صدوهم.

ورجع الحليس غاضبا، ولم يواصل تقدمه ليلقى رسول الله ﷺ، واتجه إلى دار الندوة، وهو يغالب غضبه، فلما جلس قال لصحبه:

– إنى رأيت ما لا يحل منعه، رأيت الهـدى فى قلائده قد أكل أوباره، معكوفا من محله، والرجال قـد شـعثوا وقملوا راغبين أن يطوفـوا بهذا البيت، والله ما على هذا حالفناكـم ولا عاقدناكم، على أن تصدوا عن البيت من جاءه معظما لحرمته مؤديا لحقه، والذى نفسى بيده، لتخلينّ بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد.

فقالوا يسترضوه:

– اجلس يا حليس، فإن ما رأيت من محمد، إنما هو مكيدة.

(٢)

وأراد رسـول الله ﷺ، أن يبين لقريش ما جاء له، فأرسـل خراش بن أميه على جمل ليخبرهم، فعقر عكرمة بن أبى جهل الجمل، وتكاثر المشـركون على خراش يريدون قتله، فحال الأحابيش بينهم وما يريدون، فعاد إلى رسول الله ﷺ ونبأه بما حدث، فقرر أن يبعث إليهم بمن هو عزيز عليهم.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

– يا رسول الله، هل أدلك على رجل أعز على مكة، وأكثر عشيرة وأمنع، وأنه يبلغ لك ما أردت.. عثمان بن عفان.

فدعا رسـول الله ﷺ عثمان رضى الله عنه. وطلب منه أن يبلغ أهل مكة أنه إنما جاء معتمرا يريد بيت الله الحرام، وأن يدعوهم إلى الإسـلام، وليذهب إلى من تخفّوا بينهم مسـلمين يبشـرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكا أن يظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان.

وانطلق عثمان بن عفان رضى الله عنه، فلقيه أبان بن سعيد، فرحب به وأجاره، ودخل معه مكة، وفى المساء، قال عثمان لمن اجتمعوا فى دار الندوة:

– إن رسـول الله ﷺ يدعوكم إلى الإسـلام، ويخبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمرا، معه الهدى، عليه القلائد، ينحره وينصرف.

فردوا عليه قائلين:

– قـد سمعنـا ما تقول، ولا كان هذا أبدا، ولا دخلها علينا عنـوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا..

ثم قالوا لعثمان رضى الله عنه:

– إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

فقال:

– ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ.

وفضـل عثمان أن يزور أهلـه بمكة فضيفوه عندهـم، وهو ما أراد الزيارة، ولكنه أراد أن يتحرك فى حرية ليبلغ رسـالة نبى الله ﷺ للمتخفين بإسـلامهم، وحين سـجى الليل أمكنه الله من ذلك، بينما بعثت قريش بخمسـين من محاربيها الأشـداء ليطوفوا حول جند المسلمين، عسى أن يصيبوا منهم شيئا وهم نائمون.

كان رسـول الله ﷺ قد أمر الصحابة بالحذر، وتناوب الحراسـة ليـلا، فلما قـدم فرسان المشركين، ترامى حرس المسـلمين والمغيرين، فقتلوا مشركا وأوقعوا بهم الهزيمة، وأسروهم جميعا، إلا واحدا منهم اسـتطاع الفرار إلى مكـة، فنبأ أهله بما حل بفلذات أكبادهم، فتنافـرت قريش، وخرج جمع منهم إلى الحديبية فتراموا مع المسلمين، وتواصل نصر الله، وأسر المسلمون منهم اثنى عشر فارسا.

وأشـاع بعض من الأسـرى بين المسلمين؛ أن قريشـا قد قتلت عثمان، فبعث رسول الله ﷺ بعشرة رجال ليدخلوا مكة سـرا، ويسـتطلعوا أمر عثمان، فعلمت قريش بأمر خروجهم، فكمنوا لهم وأسروهم، وبلغ المسلمين أن قريشا قد قتلتهم كما قتلت من سبقوهم.

فلما وصل الأمر مسامع رسول الله ﷺ، دعا إلى البيعة، وقال:

– لا نبرح حتى نناجز القوم.

وبايع الناس رسـول الله ﷺ، على أن يصمدوا فى وجه المشـركين حتى يأتى نصر الله. وتجهزوا للحرب.

وعلمــت قريش بتعاهد المســلمين على قتالهم، فانتابهم فزع عظيــم، فها هم أولاء كلما لقوا جند الله باءوا بخســران عظيم، حتى أخذهم الشــؤم كل مأخذ فأظلمت الدنيا فى عيونهم، حتى لم يعودوا يرون أنفسهم إلا أسرى عند رسول الله، ولولا بقية من الكبر، لسارعوا إليه رافعين رايات الاستسلام، وها هم أولاء يبعثون سفراءهم إلى رسول الله ﷺ، قائلين:

- يــا محمد، إن أصحابك بخير، أما ما كان من حبســهم بمكــة، وما كان من قتال من قاتلك، فلم يكن من رأى ذوى رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، ولم نعلم بـه، وكان من سفهائنا: فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة، والذين أسرت آخر مرة.

فرد رســول الله ﷺ مبعوثيهم، رافضا أن يطلق ســراح أســرى قريش، قبل أن تطلق قريش ســراح أصحابه.

وقد كان.

وعاد عثمان مع العشرة الذين أسرتهم قريش، بينما أطلق المسلمون أسرى قريش؛ فلما لقى جمع من المسلمين عثمان سألوه، قائلين:

- أشفيت من البيت يا أبا عبد الله؟.

عقب عثمان على ما قالوا، غاضبا:

- بئس ما ظننتم بى، فو الذى نفســى بيده، لو لبســت مقيما بمكة ســنة، ورســول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ، وقد دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت.

فقالوا له:

- هكذا قال رسول الله ﷺ حين بلغه ما ظنناه بك.

قال عثمان رضى الله عنه:

- صدق رسول الله ﷺ، وخابت ظنتكم.

## ٣

اجتمع أهل الرأى من قريش، وقد أخذ الشيطان بذيله فى خوف، وجلس بينهم مخذولا لا يوسوس، فخمدت حمية الجاهلية فيهم، ونهض العقل بدوره فى رشــاد، فلم يطل نقاشــهم، بل أجمعوا على مهادنــة محمد، على أن ينصرف عنهم عامهم هــذا، ولا يخلص إلى البيت، فتتحدث العرب بأنه قد دخله عليهم راغما لأنوفهم، أما إذا رضى وانصرف عنهم عامهم هذا، فسوف تتسامع العرب بأنهم قد صدوه صدودا، وتظل هيبتهم رافعة ألويتها، أما إذا شاء فليرجع فى قابل حسب عهدهم، فيقيم ببلدهم ثلاثا، وينحر هديه، ولا يدخل بيوتهم ولينصرف.

وقالوا لسهيل بن عمرو:

- آت محمدا فصالحه على ما اتفقنا عليه.

فلما أهل سهيل وصحبه من بعيد، على رسول الله ﷺ، قال لمن حوله:

- سهل أمركم.

جلس سهيل بين يدى رسول الله ﷺ، وجرى بينهما القول، حتى اتفقا على الصلح، وأن تمنع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا، وأنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ـ حتى وإن كان على دين محمد رسول الله - رده إلى وليه، وأنه من أتى قريشا ممن تبع محمدا لم يردوه عليه، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة: أن يمتنع بينهم السرقة والخيانة، وأنه من أحب أن يدخل من قبائل العرب فى عقد وعهد محمد رسول الله دخل فيه، ومن أراد أن يدخل فى عقد وعهد قريش دخل فيه.

وهنا تواثب من حضر من خزاعة، وقالوا:

- نحن فى عقد محمد رسول الله وعهده.

بينما تواثب من حضر من بنى بكر، وقالوا:

- نحن فى عقد قريش وعهدهم.

كره المسلمون هذه الشروط، وامتعضوا منها، فلما جاء وقت المكاتبة، وثب عمر بن الخطاب مغاضبا، وقال:

- يا رسول الله، ألست نبى الله حقا؟.

قال ﷺ:

- نعم.

قال عمر:

- ألست على الحق، وهم على الباطل؟.

قال ﷺ:

- نعم.

قال عمر رضى الله عنه:

- أليس قتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار؟.

قال ﷺ:

- نعم.

قال عمر:

- علام نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟.

قال ﷺ:

- إنى عبد الله ورسوله، ولست أعصيه، ولن يضيعنى، وهو ناصرى.

قال عمر:

– أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف حقا؟.

قال ﷺ:

– نعم، أفأخبرتك أنك تأتيه العام.

قال عمر:

– لا.

قال نبى الله ﷺ:

– فإنك آتيه ومطوف به، يا عمر ترانى رضيت وتأبى؟.

فخجل ابن الخطاب، وسكت فلم يعقب بعدها بكلمة واحدة.

فقال سهيل لرسول الله ﷺ:

– هات، أكتب بيننا وبينك كتابا.

فدعا رسول الله ﷺ عليا رضى الله عنه، وقال له:

– أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل:

– أما الرحمن الرحيم، فلا أدرى ما هو ؟.. أكتب باسمك اللهم.

فثار المسلمون، وقالوا:

– لا تكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال نبى الله ﷺ لعلى:

– أكتب باسمك اللهم.

فكتب على، فقال رسول الله ﷺ:

– هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فاعترض سهيل، وقال:

– والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، أكتب فى قضيتنا ما نعرف، أكتب: محمد بن عبد الله.

قال رسول الله ﷺ لعلى:

– أمحه.

فتلكأ على رضى الله عنه، وقال:

– ما أنا الذى أمحك.

فقال نبى الله ﷺ:

– أكتب، فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد.

ولما أراد على رضى الله عنه أن ينفذ قول رسـول الله ﷺ ، أخذ أسـيد بن حضير وسـعد بن عبادة بيده، ومنعاه أن يمحوها، وقالا:

- هى محمد رسول الله ﷺ ، وإلا فالسيف بيننا وبينهم.

وارتفعت أصوات المسـلمين مؤيدة لرأيهما، وأخـذ رسـول الله ﷺ يشير بيديـه ليسكتهم، ثم طلب من على أن يريه الكتاب، فناوله له، فمحاه رسول الله ﷺ ، وقال لعلى:

- اكتب محمد بن عبد الله.

فكتب «على» رضى الله عنه، وحين أراد أن يستطرد كاتبا، اعترضوا على أن يرد من جاءهم مسلما إلى قريش، ولا ترد قريش من ذهب إليها، فقال نبى الله ﷺ :

- نعم، أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجا ومخرجا.

ولما قرب الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح، إذا أبو جندل بن سـهيل قد فر من القيود التى كبله بها أبوه، ونزل على معسكر المسلمين مستجيرا، وكان على الإسلام، فلما رآه سهيل قام إليه يضرب وجهه بغصن شوك، وهو يقول لرسول الله غاضبا:

- يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده.

فرجاه الحبيب ﷺ أن يكف عن إيذائه لابنه، وهو لا يستحى ولا يستجيب، فلما أجبره الصحابة على أن يكف يده، أجابه رسول الله ﷺ إلى طلبه، وقلبه يتمزق ألما، قائلا لأبى جندل:

- اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا، وإنا لا نغدر.

ورجع أبو جندل مع أبيه مكبلا فى الأغلال، والمسـلمون فى غاية الحزن، والكرب من هذه المعاهدة التى كبلتهم فلم يقدروا على نجدة أخ فى الله، فلما نادى رسـول الله ﷺ يطالبهم بنحر الهدى، مرة ومرة ومرات، لم يستجب أحد، فاشتد عليه الأمر، ودخـل حزينا على زوجه أم سلمة ونبأها بما كان من أمر المسلمين معه، فقالت له:

- يا رسـول الله لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم، مما أدخلت على نفسـك من المشـقة فى أمر الصلـح، ورجوعهم بغير فتح، يا نبـى الله اخرج ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق شعرك.

فخرج رسول الله ﷺ ، فأخذ حربة وأهوى بها على البدن يذبحها، رافعا صوته يقول:

- بسم الله، والله أكبر.

فتواثب المسلمون ينحرون هديهم مسمين مكبرين، وبعد أن انتهوا حلق البعض وقصر البعض الآخر، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبته، وهو يقول باسما:

- رحم الله المحلقين.

قال المسلمون:

- يا رسول الله، والمقصرين.

قال الحبيب ﷺ:

- رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، والمقصرين.

قال من سمعوا:

- يا رسول الله، ما بال المحلقين قد أكثرت عليهم الترحم؟.

قال ابن عباس إن رسول الله ﷺ قال لهم:

- لأنهم لم يشكوا.

وهبت الريح شديدة فحملت شعر المحلقين والمقصرين فألقته فى الكعبة، وهكذا شاء الله أن يستقر شعرهم حيث كان يجب أن يستقر.

وجمع المسلمون أغراضهم، وطووا خيامهم، وأعلن عن الرحيل للعودة إلى الديار.

٤

فى الطريق أصاب المسلمين الجوع، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى أن يذبحوا ما يركبون من بعير، فأذن لهم، ولكن عمر بن الخطاب قال:

- يا رسول الله أنذبح ما نركب، فنرهق بالسير، فإذا ما لقينا عدوا لقينا جياعا رجالا، ولكن إذا رأيت أن ندعو الناس ببقايا زادهم فنجمعها ثم تدعو فيها بالبركة، فإن الله سيبلغنا بدعوتك.

ودعا الناس لأن يأتوا بما لديهم من زاد، ووضع مجموعا على بساط، فكان قليل القليل، فقام رسول الله ﷺ فدعا الله بما شاء أن يدعو، واستجاب ربه لدعائه فكثر القليل، واجتمع الناس فأكلوا حتى شبعوا، ثم حشوا أوعيتهم من رزق الله، وبقى مثل ما أكلوا وحملوا، ورسول الله ﷺ يتبسم فى سعادة، قائلا:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله: والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما، إلا حجب من النار.

وأمطرت السماء والوقت صيف، فشرب المسلمون وارتوت بهائمهم، ثم أذن للرحيل، وفى أثناء المسير إلى المدينة، وسوس الشيطان لبعضهم، فقالوا:

- ما هذا بفتح، فلقد صددنا عن البيت، وصد هدينا.

وعن عروة أن رسول الله قال:

- بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله تعالى عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح: أنسيتم يوم أحد، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى

أخراكم؟.. أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون؟!.

فقال المسلمون:

– صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتح، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا.

وأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ سورة الفتح، فكان أول من طلب أن يلقاه عمر بن الخطاب، وحين جلس بين يدى نبى الله ﷺ، شكر الله على ما بشره به، ثم قرأ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [سورة الفتح – الآية ١ : ٣].

فقال عمر:

– صدق الله العظيم، وصدق نبيه.

## ٥

بعد عودة المعتمرين إلى المدينة، قدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة من مكة إلى المدينة هربا بدينها، فلقد كانت زوجة لمشرك، وحين أراد أهلها استردادها، أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [سورة الممتحنة – الآية ١٠].

فامتنع نبى الله ﷺ عن تسليمها لهم، وبقيت بين المسلمين وقد طلقت من زوجها، ثم قدم أبو بصير عتبة بن أسيد من مكة، ماشيا على قدميه فارا من حبس قومه له، ومعه خمسة ممن كانوا قد احتجزهم المشركون من مستضعفى المسلمين، ومكثوا بين المسلمين ثلاثة أيام، ثم وفد على رسول الله ﷺ من يحمل إليه كتابا من أهل أبو البصير يطالبونه بحق العهد الذى بينهم وبينه، أن يعيد أبا البصير إليهم، فأمر رسول الله ﷺ أبا البصير أن يعود مع الرجلين إلى أهله، بعد أن بشره بأن الله سيجعل له فرجا ومخرجا؛ وقبل أبو البصير ما أمر به رسول الله ﷺ على مضض، وقد أضمر فى نفسه شيئا، وسار جمع من المسلمين يبشرونه بمقولة رسول الله ﷺ، قائلين:

– يا أبا البصير أبشر، فإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا.

وعلى رغم بشارة نبى الله ﷺ، راحوا يحرضونه على قتل من جاء لأخذه، فلما وصل ركب أبو البصير ذى الحليفة، صلى صلاة المسافر ركعتين فى مسجدها، ودعا من معه إلى الطعام، فلما أكلوا

قام رسول قريش يهز سيفه ملوحا، ثم قال مفاخرا:

- لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل.

فقال له أبو البصير:

- أصارم سيفك هذا؟.

قال الرجل:

- نعم.

قال أبو البصير:

- ناولنيه أنظر إليه إن شئت.

فناوله لأبى البصير، ففاجأه بضربة قتلته، فلما رأى الدليل ما أصاب صاحبه، انطلق يعدو فى هلع متجها إلى المدينة، وطلب من رسول الله ﷺ أن يؤمنه فأمنه، فقدم أبو البصير متمنطقا سيف الرسول، راكبا راحلته، ووقف بين يدى رسول الله ﷺ، وقال:

- يا رسول الله، قد وفت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتنى بيد العدو، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن.

فقال رسول الله ﷺ:

- ويل لمسعر حرب.

فلما سمع أبو البصير قولة نبى الله ﷺ، خرج فى صحبة مجموعة ممن فروا بدينهم، حتى وجدوا مأمنا فى مكان قريب من طريق البحر، فنزلوا به متحصنين، فلما سمع المحبوسون بقريش من المستضعفين بأمرهم، فروا متسللين إلى حيث أقام أبو البصير، فأقاموا معه، ووصل عددهم أكثر من سبعين رجلا، منهم أبو جندل بن سهيل، وكان طعامهم الحيتان التى يلقى بها البحر إليهم، ثم اجتمع إليهم أناسى كثيرة، حتى أصبحوا فيما يزيد على الثلاثمائة رجل، فكانوا كلما مرت بهم قافلة لقريش أخذوا بضاعتها، وقتلوا رجالها، فضاقت قريش بصنيعهم، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يستنجدون به، ويرجونه أن يضم إليه أبا البصير وأبا جندل، ومن فر بدينه من مكة، ولا حرج عليه فيهم!!.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير وأبى الجندل ومن معهما أن يقدموا عليه، فوصل كتاب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير، وهو على فراش الموت، فأخذ ينظر إلى كتاب الحبيب محمد ﷺ فى حب، حتى فارقته الروح.

ورجع أبو الجندل ومن معه إلى المدينة، وأقاموا بين أهلها.

(٦)

كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم، وحمل كتابه دحية الكلبى، فسلمه إلى عظيم بصرى، فأرسله بدوره إلى القيصر فى القدس، فقرءوه عليه:

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الآرسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران - الآية ٦٤].

فقال الملك:

- ابحثوا لنا عن أحد من قوم محمد رسول الله، نسأل عنه.

وجاءوا له بأبى سفيان بن حرب ومن معه من القرشيين، وكانوا فى تجارة لهم بالشام، فطلب قيصر من مترجمه أن يسألهم:

- أيكم أقرب نسبا لمحمد؟.

فقال أبو سفيان:

- أنا.

فأدناه قيصر منه، ثم أمر مترجمه أن يطلب من أصحابه، رد أبا سفيان إذا كذب فى أمر من الأمور التى سيسأله عنها، ثم سأل أبا سفيان:

- كيف نسب هذا الرجل فيكم؟.

قال أبو سفيان:

- هو فينا ذو نسب.

قال قيصر:

- هل تكلم بما يقول محمد رسول الله، أحد منكم من قبل؟.

قال أبو سفيان:

- لا.

قال قيصر:

- هل كنتم تتهمونه بالكذب؟.

قال أبو سفيان:

- لا.

قال قيصر:

- فهل كان من آبائه ملك؟.

أجاب أبو سفيان:

- لا.

سأل قيصر، قال:

- ومن يتبعونه: أأشراف الناس، أو ضعفاؤهم؟.

قال أبو سفيان:

- بل ضعفاؤهم.

قال قيصر:

- وهل يزيدون أو ينقصون؟.

قال أبو سفيان:

- بل يزيدون.

قال قيصر:

- هل يرتد أحدهم سخطا على دينه؟.

قال أبو سفيان:

- لا.

قال قيصر:

- هل يغدر إذا عاهد؟.

قال أبو سفيان:

- لا، ونحن الآن معه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل بها.

قال قيصر:

- فهل قاتلتموه؟.

قال أبو سفيان:

- نعم، والحرب بيننا سجال، مرة لنا ومرة علينا.

قال قيصر:

- فيم يأمركم؟.

قال أبو سفيان:

- يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهى عما كان يعبده آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

قال قيصر:

- إنى سألتك عن نسبه، فقلت: إنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها؛ وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فقلت: لا، فلو كان أحد قبله قال هذا القول، لقلت: رجل يأتى بقول قيل قبله؛ وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فقلت: لا، فما كان ليذر الكذب على الناس ليكذب على الله؛ وسألتك هل من آبائه ملك، فنفيت ذلك، فلو كان من آبائه ملك، لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقلت: بل

ضعفاؤهم، فالضعفاء أتباع الرسـل؛ وسـألتك: هل يزيدون أو ينقصون، فقلت بل يزيدون ولا يرتد أحد منهم، وكذلك الإيمان حين تخالطه بشاشة القلوب يزيد حتى يتم؛ وسألتك: هل قاتلتموه، فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سـجال، وكذلك الرسـل تبتلى ثم تكون لها العاقبة؛ وسألتك: بماذا يأمر وهل يغدر، فذكرت بما يأمر؛ وقلت إنه لا يغدر، وهكذا الرسل تأمر بالخير ولا تغدر؛ فتيقنت أنه نبى، وقد كنت أعلم أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين.

وعلا صوت من كان حاضرا من قومه مسـتنكرين ما قال قيصر، فأمرهم بالصمت، ثم أمر بالقرشـيين فأخرجوا من المجلس.

سـار قيصر إلى حمص، وقد مال للدخول فى دين الإسلام ميلا شديدا، ولما وصل حمص، أمر بجمع عظماء قومه فى قصر له، ثم أمر العسكر فغلقوا عليهم الأبواب، ثم عرض عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وشهادة أعدائه له، وقال:

– يا معشر الروم، هل أدلكم على سبيل الرشد والفلاح، وأن يثبت ملككم؟.. بايعوا هذا النبى.

وانتفض الشيطان غاضبا أشد الغضب، فتصايح الحاضرون، ونفروا غاضبين يريدون الأبواب، عازمين علـى الانقلاب علـى القيصر، ولكنهم فوجئوا بالأبواب مغلقة، فلما رأى القيصر غضب قومه مما عرض عليهم، وعزمهم على الغدر به وبسلطانه؛ قال للعسكر:

– ردوهم إلى.

فلمـا اكتمل شملهم، هداه شـيطانه إلى أنه لا سـبيل للخلاص مما هو فيـه، إلا بالنكوص عما كان عازما عليه، فقال لهم:

– يا معشر الروم، إنما قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم.

فلمـا عقلـوا مقولته، ذهب عنهـم الغضب، ورضوا عن مليكهم، وخمد غضب الشـيطان، وتبسـم منتصرا.

## ٧

أرسـل نبى الله ﷺ رسـالة مماثلة إلى كسرى ملك الفرس، قال له فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمـد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سـلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأن محمدا عبده ورسـوله، أدعوك بدعوة الله، فإنى رسـول الله إلى النـاس كافـة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. أسـلم تسـلم، فـإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فلما قرأ كسـرى كتاب رسـول الله ﷺ إليه، مزقه شر ممزق؛ وبلغ ما فعله كسرى رسول الله ﷺ، فقال:

– مزق الله ملكه كل ممزق.

فما مرت عليه شهور قلائل، إلا وثار عليه ابنه فقتله، وانتزع الملك منه.

كما أرسل النبى ﷺ، كتابا إلى المقوقس بن متى، عظيم القبط بالإسكندرية، فلما قرأه قال:

- ما منعه إن كان نبيا، أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟!!.

فقال من حمل الكتاب:

- ألست تشهد أن عيسى بن مريم عليه السلام رسول الله؟.

قال المقوقس:

- بلى.

قال حامل الكتاب:

- فماله حين أخذه قومه ليقتلوه، ألا يكون دعا عليهم قبل أن يرفعه الله، أن يهلكهم الله؟!!.

قال المقوقس:

- أنت حكيم، جئت من عند حكيم.

وكتب المقوقس ردا على كتاب رسول الله ﷺ، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليكم، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وظننت أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وبثياب، وببغل تركبها، والسلام».

كما أرسل ﷺ برسل حملوا كتبه إلى كثير من الملوك والحكام، فلم يسلم منهم غير النجاشى ملك الحبشة، هو والمنذر بن ساوى ملك البحرين، ولقد كتب بعد إسلامه إلى رسول الله ﷺ يقول: «أما بعد، يا رسول الله، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فكثر منهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه؛ وبأرضى مجوس ويهود، فأرسل إلى فى ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، فإنى أحمد الله إليك، الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله؛ أما بعد،فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فلنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى؛ ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم، ومن أقام على يهوديته أو ماجوسيته، فعليه الجزية».

## (٨)

الشهر: ذى القعدة.

السنة: السابعة من الهجرة.

وقد مر عام على معاهدة الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يتجهزوا للعمرة، ولا يتخلف أحد ممن شهدوا صلح الحديبية، وطلب رسول الله ﷺ أن يكفل أهل المال من لا يملك زاده.

فقالوا:

- يا رسول الله، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئا؟.

فقال ﷺ:

- بما كان، ولو بشق تمرة.

وخرج المسلمون ممن شهدوا الحديبية. فلم يتخلف منهم أحد، وأحرم رسول الله ﷺ من باب مسجده، وساق معه ستين بدنة. وصحب المسلمون معهم أسلحتهم، تحسبا لأى عدوان من الكفار، وبينهم مائة فارس، فلما طلعت بشائر الحجيج على قريش أصابهم الرعب مما رأوا، وقالوا:

- والله ما أحدثنا حدثا، وإنا على كتابنا، ومدتنا، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه؟!.

وبعثوا إليه بنفر منهم، فقالوا:

- والله يا محمد، ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف فى القرب.

فقال لهم ﷺ، إنه لن يدخلها عليهم بسلاح، فقالوا له:

- هو ما تعرف به، البر والوفاء.

ورجعوا إلى قومهم فطمأنوهم، وكره ناس من الكفار رؤية رسول الله ﷺ فى عقر دارهم، فهجروا دورهم إلى ذرى الجبال، بينما أغلق غيرهم أبواب بيوتهم عليهم، لا يخرجون منها ولا تدخل عليهم، بينما خرج الصبية يدفعهم الفضول ينظرون إلى ما يجرى.

دخل رسول الله ﷺ مكة على ناقته، ثم نزل عنها، واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعا، بعد أن اضطبع بأن كشف عن كتفه اليمنى، وأدخل رداءه من تحت إبطه، وحوله المسلمون يفعلون مثلما يفعل، فرملوا ثلاثة أشواط، ومشوا بين الركنين: اليمانى والأسود وهم يرددون:

- لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

فلما انتهى رسول الله، ركب راحلته، واتجه إلى الصفا، وسعى راكبا بين الصفا والمروة، وحوله المسلمون ما بين راجل وراكب، فلما أتمها سبعا عند المروة، حيث تجمعت الهدى، حلق شعره، ثم نحر، وقال:

- هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر.

ودخل رسول الله ﷺ الكعبة بعد صلاة العشاء، فمكث فيها، حتى أذن بلال من فوق سطح الكعبة لصلاة الصبح.

ومكث رسول الله بمكة ثلاثة أيام، لم يدخل دارا من دورها، ثم غادر هو وصحبه عائدين إلى المدينة، وقد لحقت به قلوب ثلاثة من قادة قريش، بعد أن تعاقدوا على الإسلام.

يقول عمرو بن العاص رضى الله عنه:

- بعد وقعة الخندق، كنت قد عقدت العزم على الهجرة لأقيم بالحبشة عند النجاشى، حتى إذا ظهر محمد كنت فى حمى بلد غير مكة. فحملت للنجاشى جلودا كثيرة، فلقد كان يحب هذه الهدية،

وبينمـا أنـا عنده، إذا برسـول يأتي من عند نبي الله، فطلبت منه أن يسـلمه لي لأقطع عنقه، فغضب النجاشي أشد الغضب، وقال:

- أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لتقتله؟!!.

قلت بعد أن اعتذرت للملك لأني أغضبته:

- أيها الملك، فكذلك هو؟!.

قال النجاشي:

- ويحـك يا عمـرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهـرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

فقلت له:

- أتبايعني على الإسلام؟!.

فبسط يده فبايعني، وخرجت إلى أصحابي وكتمت عنهم إسلامي.

فلما عدت إلى مكة، قررت أن أخرج مهاجرا لألحق برسول الله ﷺ بالمدينة، وبينما أنا خارج، إذا بي أجد خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، قد سبقاني في الخروج، معا إلى رسـول الله ﷺ وأعلنا إسلامنا عنده.

ولقد بادر رسـول الله ﷺ فأرسـلني بكتاب إلى جيفر وعياذ ملكي عمان، فلما وصلت إليهما بدأت بعياذ، فقرأ كتاب رسول الله، فرق قلبه بعد أن علم بمبادئ الإسلام، وقال:

- لـو كان أخـي يطاوعنـي لركبنـا حتـى نؤمن بمحمـد، ولكن أخـي أضن بملكه مـن أن يدعه ويصير تابعا.

فقلت له:

- إن أسلم أخوك، ملكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، وردها على فقيرهم.

فصحبني إلى أخيه جيفر، فتكلمت معه بما ألان قلبه للإسلام، فأسلم هو وأخوه.

## ٩

الشهر: جمادى الأولى.

السنة: الثامنة من الهجرة.

بعـث رسـول الله ﷺ سـرية من ثلاثة آلاف مقاتـل، للقصاص ممن قتلوا رسـوله إلى أمير بصرى، وعسكر جند الله بمنطقة الجرف، فلما صلى بهم رسول الله ﷺ جلس إليهم، وأعلمهم بأن اللواء منعقد لزيد بن حارثة فهو أمير الناس، فإذا ما قتل، فلجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحه.

فلما تهيأ الناس للمسير أوصاهم رسول الله ﷺ بتقوى الله، وأن يقاتلوا من كفر بالله، وألا يغدروا، ولا يغلـوا، ولا يقتلـوا وليدا، ولا امرأة، ولا صغيرا ضرعا، ولا كبيرا فانيا، ولا يغرقوا نخلا، ولا يقلعوا

شجرا، ولا يهدموا بيتا، ولا يتعرضوا لرجال فى الصوامع معتزلين الناس.

وقال عبد الله بن رواحه:

- يا رسول الله، عظنى بشيء أحفظه عنك.

قال رسول الله ﷺ:

- أنت قادم غدا بلدا السجود فيه قليل، فأكثر السجود.

قال عبد الله:

- زدنى يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

- اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب.

ومضى عبد الله، ثم عاد لرسول الله ﷺ:

- يا رسول الله زدنى الثالثة فإن الله وتر يحب الوتر.

فقال رسول الله ﷺ:

- ابن رواحه، ما عجزت فلا تعجزن، إن أسأت عشرا فعليك أن تحسن واحدة.

## ١٠

لقى المسلمون طلائع جند شرحبيل بقيادة أخيه سدوس، فقاتلوهم وهزموهم شر هزيمة وقتلوا «سدوس»، ثم بلغهم أن هرقل قد خرج إليهم فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من قبائل العرب، فقال رجال من المسلمين: نكتب إلى رسول الله، فنخبره بأمر عدونا، فإما يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له.

فقام فيهم عبد الله بن رواحه، قائلا:

- يا قوم، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيل؛ ما كنا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فإنما هى إحدى الحسنيين: إما الظهور، وإما الشهادة.

وأثارت كلمات ابن رواحه الحمية فى النفوس، وقالوا:

- قد والله صدق ابن رواحه.

وساروا إلى قرية يقال لها مؤتة فلقوا حشود هرقل، ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والعدة، وعلى رغم ما رأوا قاتلوا جند هرقل قتال الشهداء، فقتل زيد، وتناول منه جعفر الراية فقاتل، فقطعت يمينه، فأمسك الراية بيساره، فقطعت يساره، فأمسك الراية بعضديه، فشطره رجل من الروم بسيفه فشقه نصفين، فتناول ابن رواحه الراية وتردد قليلا، ثم أقدم فقاتل حتى قتل، فسقط اللواء، فاختلط الجند، وانهزم المسلمون، وكروا متراجعين، فالتقط اللواء ثابت بن أقرم ورفعه عاليا، وصاح:

- إلى أيها الناس.

فالتف حوله الجند فخطب فيهم قائلا:

- يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم.

قالوا:

- أنت.

فدفع باللواء إلى خالد بن الوليد، وقال:

- خذ اللواء يا أبا سليمان.

وتناول خالد لواء المسلمين ودافع، وثبت فارتد الكفار، وحل الظلام فتوقف القتال.

وفي ذات اللحظة، كان نبي الله ﷺ يجلس على المنبر وحوله صحابته، فأخذ يصف لهم ما يحدث للمسلمين، فنبأهم بموت زيد شهيدا، ثم بموت جعفر شهيدا، ثم تغير وجهه قليلا وسكت، ثم قال وقتل ابن رواحه شهيدا، وعقب قائلا: لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت سرير ابن رواحه فيه ازورار عن سريرى صاحبيه، فقلت: عم هذا ؟. فقيل لى: مضيا، وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى.

وقام رسول الله ﷺ من مجلسه، وخرج شاقا طريقه إلى دار جعفر، ولما وصل، استأذن من أهلها، ثم دخل على أسماء بنت أبى بكر، امرأة جعفر، فقال لها:

- يا أسماء أين بنو جعفر؟.

فجاءت بهم إليه، فضمهم الحبيب ﷺ إليه وشمهم، وهو فى غاية التأثر، ثم زرفت عيناه فبكى، وقال:

- اللهم إن جعفرا قد قدم إلى أحسن الثواب، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما أخلفت أحدا من عبادك فى ذريته.

فقالت زوجة جعفر:

- أى رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شيء؟.

فقال ﷺ:

- نعم، قتل اليوم، يا أسماء ألا أبشرك؟.

قالت:

- بلى، بأبى أنت وأمى.

قال ﷺ:

- فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة.

وارتعد بدن أسماء، وهى تحاول أن تخفى حزنها وتتحمل مصيبتها، للحظات، ثم بدأت تصيح، فاجتمعت إليها النساء، فقال لها رسول الله ﷺ:

– يا أسماء، لا تقولى هجرا، ولا تضربى صدرا.

وذهب الحبيب ﷺ إلى ابنته فاطمة، فقال لها:

– اصنعوا لآل جعفر طعاما، فلقد شغلوا عن أنفسهم اليوم.

ولما كان الغد عدل خالد من أوضاع الجند، فجعل الميمنة مكان الميسرة والميسرة مكان الميمنة، فلما رآهم جند هرقل فزعوا ورعبوا ومالوا منهزمين، فناور خالد رضى الله عنه، ثم عاد بجند الله إلى المدينة سالمين.

فلما رآهم الناس، أخذوا يرمونهم بالتراب، ويقولوا:

– يا فرار، أفررتم فى سبيل الله.

فكانوا يسارعون إلى بيوتهم ويغلقون عليهم الأبواب فلا يفتحون لأحد، فأرسل إليهم الحبيب ﷺ رجلا رجلا، وصار يقول لهم:

– أنتم الكرار فى سبيل الله.

وحين بلغت مقولة رسول الله ﷺ إلى أسماع المسلمين، كفوا ألسنتهم، وتحفزوا مترقبين تحقق بشارة نبى الله ﷺ، ليروا إخوانهم كرارا على أعداء الله.

□□□